المحاضرة السابعة:

التجديد الشعري المهجري

تمهيد.

I. مظاهر التجديد الشعري عند شعراء المهجر 1.

التجديد في الموضوع.

2. التجديد في البناء (الشكل).

المحاضرة السابعة:

التجديد الشعري المهجري

تمهيد: رأينا في المحاضرات السابقة، كيف كانت حركات التجديد في الشعر العربي، وهي تتأرجح بين المشرق العربي والمغرب العربي، وهي تسير في خط تصاعدي، تاركة أثارها المنحوتة في صفحات الشعر العربي، عاكسة حجم الجهود التي بذلها أدباء تلك الفترة الزمنية.

لكن بالموازاة مع هذا كان هناك تيار ينمو ويتطور خارج رحم الأوطان العربية ونعني به أدباء المهجر، الذين اطلعوا بمهمة التجديد في الشعر العربي. ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر ميلادي شهد لبنان موجة كبيرة من هجرة أبنائه إلى البلاد الخارجية، فاتّجه بعضهم إلى البلاد العربية المجاورة مثل سوريا ومصر، واتّجه السّواد الأعظم إلى الأمريكتين الشمالية والجنوبية، وقد دفعتهم إلى ذلك جملة من الأسباب يمكن حصرها فيما يأتي:

- **أسباب سياسية:** كانت سوريا ولبنان إبّان القرن التاسع عشر، خاضعتين للحكم العثماني الجائر، الذي استبّد بالأهالي وعبث بكرامة الشعب وحرمه من أبسط متطلبات الحياة، فانتشر الفقر والبؤس والحرمان.
- **أسباب اقتصادية:** كان للحياة السياسية أثر على الحياة الاقتصادية، إذ عاشت المجتمعات العربية فقرا مدقعا، جعل أهاليها يتركونها إلى ديار الغربة ربّما حيث العيش الكريم.
- **أسباب تاريخية:** تتمثل في سهولة الهجرة إلى ديار الغربة لأنّها حدثت جيلا بعد جيل، فقد اتّبع الأحفاد خطى الأجداد، يقول أحد الباحثين: "إن حبّ الهجرة والاغتراب وحبّ السعي في الأرض وحبّ التجارة، والعمل من أجل الحياة كلّها غرائز متأصلة في دمه"[1].

[1] عبد المنعم خفاجي: قصة الأدب المهجري، الطبعة الثانية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1973، ص16.

واذا سألنا الشاعر المهجري عند سبب هجرته يجيبنا إيليا أبو ماضي[*] قائلا[1]:

لا تعزل بينـــك إذا هم ** ركبـوا إلى العليا كلّ سفين

لم يهجروك مـــلاله... لكنّهم ** خلقوا الصيد اللؤلؤ المكنون

لمّا ولـــــدتهم نسو ار حلقوا ** لا يقنعون من العلا يا لدون

والنسّر لا يرضى السجون وان تكن ** ذهب فكيف محابس الطين

I. مظاهر التجديد الشعري عند شع ارء المهجر: بعد أن استقر بهم المقام في ديار الغربة، اتفقوا على تكوين رابطة تضم هؤلاء الأدباء الذين جمعتهم الحماسة والرغبة في التّغيير، بالرّغم من أنّ مواهب تلك الجماعة لم تكن في مستوى واحد فكانت الرابطة القلمية[*] والعصبة الأندلسية[**]. ولأنّهم عاشوا هناك بعيدا عن أوطانهم فعايشوا مجتمعا يختلف عن مجتمعهم ثقافة وحضارة ولغة وعادات فكان من الطبيعي أن يسعوا إلى التأقلم مع هذا الواقع الذي وجدوا فيه ما لم يجدوه في بلادهم، فاستطاعوا أن يبدعوا أدبا جديدا استلهموا رؤاه من هذا العالم الجديد، فحدث التجديد في الموضوع والشكل.

1. التجديد في الموضوع: إن البيئة الجديدة التي عاش فيها شعراء المهجر، وما طرحته من أفكار تختلف عن البيئة الشامية أملت على الشعراء مواضيع جديدة لم تكن مألوفة عندهم من قبل والتي نذكر منها:

أ. النزعة الإنسانية: لقد شاع في أدبهم التسامح الذي يقوم على المحبّة للمجتمع الإنساني كلّه من غير تعصب لقوم أو لدين أو لمذهب، ما يجعل الشاعر المهجري يحسّ بالإنسان ويشاركه آلامه وأحلامه، يشاركه الأحاسيس التي يحسّها فها هو ميخائيل نعيمة يقول[2]:

أخي من نحن؟ لا وطن ولا أهل ولا جار

إذا نمنا، إذا قمنا ردانا الخزيُّ والـعار

---

[*] إيليا أبو ماضي، ولد بلبنان عام 1889، شدّ الرحال إلى مصر 1911 ثم إلى أمريكا عام 1911، كتب ديوان تذكار الماضي وثير وتراب وأنشأ جريدة سمّا السمير، ذو نزعة إنسانية، توفي عام 1957.

[1] إيليا أبو ماضي: الديوان، دار العودة، بيروت، لبنان، دط، دت، ص727.

[*] الرابطة القلمية: تأسست في نيويورك عام 1921 برئاسة "جبران خليل جبران" وكان من أبرز أعضائها: ميخائيل نعيمة وعبد المسيح حدّاد ونسيب عريضة ورشيد أيوب وايليا أبو ماضي.

[**] العصبة الأندلسية: تكوّنت في المهجر الجنوبي عام 1933 برئاسة ميشال معلوف ومن روادها الشاعر القروي والياس فرحات ورياض معلوف وغيرهم

[2] ميخائيل نعيمة: همس الجفون، ط6، دار نوفل للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 2116، ص19.

لقد خمّت بنا الدنيا كما خمّت بموتـانا فهات

الرّفش وابتغي لنحفر خندقا آخر

تعكس هذه الأبيات المقتطفة من قصيدة "أخي" ذلك الرقي الحضاري والفكري والإنساني الذي اتسّم به الشاعر، ويقول إيليا أبو ماضي[1]:

إنّ نفسا لم يشرق الحب فيها ** هي نفس لم تدر ما معاها الحبّ قد

وصلت إلى نفسي ** وبالــحبّ قد عرفت الل

فالشّعر عندهم يلعب دورا كبيرا في تهذيب النّفس ونشر الخير والحب والتعاون بين النّاس، وهذه الرؤيا هي نتاج القهر الذي تجرعوا مرارته في أوطانهم لتصير النزعة الإنسانية هي أساس الحياة السعيدة ومهمّة الشاعر أو الشعر، هي مهمة نبيلة تشبه رسالة الأنبياء في أقوامهم، يقول أبو ماضي[2]:

عندما أبدع هذا الكون ربّ العالمين وأرى

كلّ الذي فيه جميلا وثــمينا خلق

الشاعر كي يخلّق للناس عيونا

تبصر ال ح سنى وتهواه ح اركا وسكونا

ب. الشعر استبطان للنّفس البشرية: إنّ دور الشاعر هو التأمل في نفسه ومن ثّم في الإنسانية وبالتالي يسعى إلى المشاركة الوجدانية لمن هم حوله، يقول جبران[3]:

المحبّة ت ضمكم إلى قلبها كأغمار ال حنــطة

وتد ر سكم على بيادرها لكي تظهر ع ريــكم

وتغربلكم لكي تحرّركم من قـــــشوركم وتطحنكم لكي

تجعلكم أنقياء كـــــالثلج وتعجنكم بـدمـوعـها

حـتّـى تـــــلينوا

ثم تعدّكم لنارها المقدسة لكي تصيروا خب از مقدّسا

وتصبحوا بهذا الإد ارك جزء من قلب الحــياة

---

[1] إيليا أبو ماضي: الديوان، ص85. [2] المصدر نفسه، ص115.

[3] جبران خليل جبران: النّبي، دار صالح تلانتيفيت للنشر والتوزيع، بجاية، الجزائر، 2113، ص29.

لقد اكتسب الشاعر المهجري -لفضل اطلّاعه على فلسفات الآخر- قدرة فائقة على التغلغل في النفس الإنسانية، لفهمها ووعي أفكارها، يقول إيليا أبو ماضي في قصيدته "الحجر الصغير"[1]:

سمـع الليل ذو النجوم أنينا ** وهو يغشى المدينة البيضـاء ويطيل
فانحنى فوقها يسترق السمع ** السكوت والإصـــغاء لا جمالا لا
حجر أغبـــر أنا وحقير ** حكمة لا مـــضاء بسلام إنّي
فلأغادر هذا الوجود وأمضي ** كـــرهت البقاء الأرض والشهب وال
وهوى من مكانه وهـو يشكو ** دجى والسماء ﴿ يـغشي المدينة
فتح الفجر جفنه فإذا الـطو ** البيضاء

تعكس هذه الأبيات قدرة الشاعر على تحليل نفسية الفرد الذي لا يعرف قيمة نفسه، ومكانته في المجتمع وما يمكن أن يقدمه لمجتمعه فينزوي انطلاقا من هذه الفلسفة الخاطئة منتحرا بشكل أو بآخر. وقد رمز له الشاعر بحجر صغير متواجد في جدار السد، فاعتقد ألا قيمة له فهوى من مكانته فانهار السدّ على المدينة البيضاء السعيدة، فحال الحجر الصغير هو حال الفرد المنهار نفسيا، إذن فقيمة الحجر ظهرت في تماسكه كذلك قيمة الفرد تبدو في تعايشه وسط مجتمعه.

ج. الشعر تأمل في الحياة والكون: لقد فهم المهجريون أنّ الحياة كلّها قائمة على ثنائية ضدية وبها تستقيم الحياة التي هي خير وشرّ وحياة وموت، شقاء وسعادة، بداية ونهاية، ولذلك وجب على الإنسان حسبهم أن يتأمل في الحياة مستعملا فكره ووعيه الداخلي، كما هو الشأن في قصيدة ميخائيل نعيمة التي عنوانها "النهر المتجمد"، إذ يقول[2]:

**يا نهر هل نضبت مياهك أم قد ** فـانقطعت عن الخرير **
هرمت وخار عــز بالأمس يك فانثنيت عن المسير ** تَنَ
كنت إذا سمعت تبكي وها هدي وتـــوجُّعي ** وحدي
أبـــكي أنا ما هذه ولا تبكي مـعي ** أم هذه قيود
الأكـــــفال؟ قد كبلتك من حـديد ** يد البرد
وذللتك بـها الشّـــــديد؟

---

[1] إيليا أبو ماضي: الديوان، ص131.

[2] ميخائيل نعيمة: ديوان همس الجفون، ص19.

كتب هذه القصيدة لمّا كان طالبا في الاتحاد السوفياتي، فعاش تجربة تجمّد الأنهار في فصل الشتاء ثم عودتها إلى الجريان في فصل الربيع. فاستنطق هذه الظاهرة الطبيعية وتغلغل في كنهها وأسرارها وحاول قراءتها بما يتماشى وفلسفة الإنسان في الحياة بين الجمود والحركة.

د. الحنين إلى الوطن: إنّ بعدهم عن أوطانهم لم ينسهم فيه لأنّهم حملوا في هجرتهم ذكريات الصبا وبراءة الحياة، فظلّ ارتباطهم بأوطانهم واتصالهم بأحداث قومهم يحنون إليه ويتأملون لحاله المزري، يقول إيليا أبو ماضي[1]:

ربّ هبني لبلادي عــودة أيّها ** وليكن للغــير في الأخرى ثوابي ** أنا
السائل عني مــن أنا لغة الفولاذ كالشــمس إلى الشرق انتسابي ** لا يعيش الشدو
هــاضت لغتي أنا في نيويورك بالجسم في البحر اصطحاب ** روح فـي الشرق على
وبال تلك الهضاب

إنّ استقرار الشاعر بديار الغربة لم ينسه انتمائه إلى الشرق حيث الوطن الحبيب، وتزداد هذه الأشواق حتى توصله إلى الإحساس بالغربة والاغتراب، يقول في هذا السياق فوزي المعلوف[*]:[2]

وأطول أشواقي إلى الـوادي ** ملهى وادي الهوى والحسن والشّعر
صباي ومهد ميلادي ** والكرم يكسو وعـسى يكون بحضنه قبري
سني الشـفق ** فترى به صفرة ألوانه ويـــــشع بالعنب
الــورق ** عسلا بلؤلؤة عــلى ذهب

لقد استعاد الشاعر مراتع الصبى في الطبيعة الخلّابة فكانت مصدر الإلهام والتّفجر والتّحرر، والعودة إلى حضن الوطن والطبيعة ولو عن طريق الخيال الشعري.

هـ. الالتجاء إلى الطبيعة: إنّ تأمل شعراء المهجر في الحياة برؤية فلسفية جعلتهم يتذمرون من المدينة بوصفها مصدر إزعاج وضوضاء فلجأوا إلى الطبيعة ديدنهم في ذلك الاتجاه

---

[1] إيليا أبو ماضي: الديوان، ص155.

[*] فوزي المعلوف، ولد بلبنان عام 1899 وهو من الشعراء البارزين، ارتبط بترثه الشرقي، اتقن الإسبانية والبرتغالية، عرف بشاعر التشاؤم والألم، توفي سنة 1931.

[2] فوزي المعلوف: الديوان، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2112، ص13.

الرومانسي الذي اعتنقوه لأنّ الطبيعة بأسرارها العميقة هي التي تحتضن أشجانهم مثلما تحتضن الأم وليدها. يقول إيليا أبو ماضي في قصيدة المساء[1]:

السّحب تركض في الفضاء الرّحب ركض الخائفين والشّمس تبدو
وخلفها صف ارء عاصبة الــجبين والبحر ساج هادئ
فيه خشوع ال ازهـــــدين لكنّها عيناك باهتتان في الأفق
البـــــعيد
سلمى... بماذا تفكـــــــــــــرين؟ سلمى... بماذا
تـــــــــــــحلمين؟
أأريت أحلام الطفولة تختفي خلف التـــخوم؟ أم أبصرت
عيناك أشباح الكهولة في الغيــوم؟ أم خفت أن يأتي الدجى
الجاني ولا تأتي النجوم؟

وظّف الشاعر في هذه الأبيات كمًّا هائلا من عناصر الطبيعة وأثقلها برموز وايحاءات تعطي للقصيدة عمقا موضوعيا وفنيا تخدم كلّها فكرة واحدة وهي المساء المثبت في عنوان القصيدة.

2. التجديد في البناء (الشكل): بعد أن تعرّفنا على مظاهر التجديد في المضمون والموضوعات، فإنّ الشعراء المهجريين قد جدّدوا أيضا في البناء الشعري ومن بين المظاهر ما يأتي:

أ. التجديد في اللّغة: ثار شعراء المهجر على كلّ ما هو قديم، وذلك من خلال دعواتهم الصريحة في الكثير من المقالات. وقد مسّت الثورة اللّغة إذ أنشأوا لأنفسهم معجمًا لغويا يمكن لأيّ قارئ أن يستشفه لأنّه مشتق من الاتجاه الرومانسي الذي اعتنقوه، يقول جبران خليل جبران ناعيا على المحافظين تمسكهم بأقوال سيبويه وأبي الأسود الدؤلي: "لكم قيها - اللّغة- ما قاله سيبويه وأبو الأسود الدؤلي وابن عقيل ومن جاء قبلهم وبعدهم من المضجرين المملّين، ولي ما تقوله الأم لطفلها والمحبّ لرفقته والمتعبّد لسكينة ليله..."[2]. ويؤكدّ هذا التوجه إيليا أبو ماضي في قوله[3]:

---

[1] إيليا أبو ماضي: الديوان، ص763.

[2] عبد المنعم خفاجي: قصة الأدب المهجري، ص86. [3] إيليا أبو ماضي: الديوان، ص51.

لست منّي إن حسبت ** الشّعر ألفاظا ووزنا

خالفت دربك دربـي ** وانقضى ما كان .منّا

فالدعوة إذن واضحة إلى ضرورة التخلص من اللّغة العربية الفصيحة وقواعدها الجامدة وتوظيف اللّغة البسيطة وحتّى العامية كقول رشيد أيوب(*):[1]

لا بدّ أن أقوى عليك ** مظف ار ولو بعد حين

لو هاجـمتني ** تحت المياه صبمرين[**]

وفي السياق نفسه تمّ ابتكار بعض الكلمات كما هو الشأن مع ابتكارات جبران خليل جبران ومنها: جبهات الروابي، أحلام اللّانهاية، كؤوس النرجس، أشباح اليقظة، المجاعة الروحية، رماد الأجيال.

ب. التجديد في الأسلوب: إن التّجديد على مستوى الألفاظ، قد تعدى إلى مستوى الأسلوب، لذلك أوّل ملاحظة يلاحظها الدّارس للشعر المهجري، هو ذلك الأسلوب الرقيق الهادئ الموحي وقد سمّاه النقاد بأسلوب الهمس العائد إلى تلك الغربة التي أرهقت شعراء المهجر، غير أنّ هذا الهمس لم يسقط شعرهم في براثن الضعف وانّما جعلوا لكلّ مقام مقال، وأسلوبهم الشعري صاف رقراق كصفاء نفوسهم، والغالب على دواوينهم أسلوب الحوار تارة وأسلوب القصص أحيانا كقول إيليا أبو ماضي في قصيدة "بلا قلب"[2]:

وقائلة ماذا لقيت مــن الحبّ ** فقلت الرّدى والخوف في البعد والقرب

فقالت: عهدت الحبّ يكسب ربّه ** شـــــمائل غاًّر لا تنال بلا حبّ

فقلت لها: قد كان حبّا فـ ازده ** نفو ر المعى و ارءه فامسيت في حرب

وقد كان لي قلب وكنت بلا هوى ** فلمّا عرفت الحبّ صــر ت بلا قلب

ونموذج أسلوب القصص قصيدة إيليا عن غدير طموح، يقول فيها[3]:

(*) رشيد أيوب: شاعر لبناني ولد عام 1871 وتوفي عام 1941، أحد أعضاء الرابطة القلمية، لقب بالشاعر الشاكي وبالدرويش، ترك ثلاثة دواوين شعرية.

(1) رشيد أيوب: الأعمال الشعرية الكاملة، تقديم د. ميشال جحا، دار البيان، بيروت، لبنان، 2119، ص85. ** صبمرين: كلمة إنجليزية تعني الغواصة البحرية (submarine)

(2) إيليا أبو ماضي: الديوان، ص163. (3)

المصدر نفسه: ص361.

قال الغدير لنفــسه ** يـــا ليتني نهر كبير ** كالنيل
مثل الف ارت المعذب أو ذي الفيض الغزير ** ت فيه
تجري السـفائن مق ار بالــرزق الوفير
وانساب نحو النّهر لا ** يلوي على المرج النضير
حـــتّى إذا ما جاءه ** غلب لبهدير على الخرير

قصة شعرية قصيرة تحكي طموح غدير أراد أن يصير نهرا، فكانت نهايته مأساوية لأنّه اندمج في النّهر وضاع فيه وانتهى وكان من الأفضل أن يعي كيانه ويعرف قيمة نفسه، وهذا هو حال الإنسان في الحياة.

ج. التجديد في الأوزان والقوافي: المتأمل من نتاج المهجريين الشعري يجد أنّهم حاولوا توظيف الأوزان المختلفة وتنويع القافية في القصيدة الواحدة، وهذا من خلال نظام المقطوعات وقد بلغ بهم الأمر إلى استخدام ما يسمى بالنثر الشعري كما هو الشأن في شعر جبران خليل جبران، وقد تصرفوا في الأوزان والقوافي دون الخروج عن التفعيلات المعروفة لدى الخليل، يقول نسيب عريضة(*):[1]

كفّنوه وادفنوه أسكنـــــوه هوة
اللّحد العميـــــــــق واذهبوا لا
تندبوه فهو شـــعب ميّت ليس
يفيـــــــق ذللّوه قتّلوه
حمّلـــــــوه فوق ما كان
يطـــــــيق هتك عرض نهب أرض
شنق بعض لم تحرك
غـــــــــــضه
فلماذا تذرف الدّمع جـــــزّافا

فوحدة الوزن في هذه القصيدة هي فاعلات ولكنّ الشاعر قد تصرّف في وضعيتها وهي طريقة جديدة، كما ابتدعوا طريقة الجمع بين مصراعي كلّ بيت في القصيدة مثلما هو الشأن

(*) نسيب عريضة: شاعر وقاص سوري ولد عام 1887، هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، كان أحد مؤسسي الرابطة القلمية، ترك ديوان الأرواح الحائرة، توفي عام 1946.

[1] نسيب عريضة: ديوان الأرواح الحائرة، دار بيان للنشر، بيروت، لبنان، 2119، ص213.

في قصيدة المساء لإيليا أبو ماضي، إضافة إلى كلّ هذا فقد جدّدوا أيضا في القافية حيث صارت تتنوع في القصيدة الواحدة كقول ميخائيل نعيمة[1]:

سماؤك يــوما ** تحجبت بالغيــوم
أغمض جفونك تبصر ** خلف الغيوم نجـوم
والأرض حــولك إمّا ** توشحت بالثــلوج
أغمض جفونك تبصر ** تحت الثلوج مـروج
وان بليت بــداء ** وقبل دا ء عيــاء
اغمض جفونك تبصر ** في الدّاء كـلّ دواء **
وعندما الموت يـدنو واللّحد يفغر فــاه ** في اللّحد
أغمض جفونك تبصر مهد الحياه

يحاول الشاعر في هذه الأبيات كسر الرتابة من خلال التغيير في القافية والروي وذلك لإبعاد الملل عن القارئ من جهة وملائمة الحالة النفسية من جهة ثانية، كما جدّد شعراء المهجر بإبداعهم لنوع جديد يسمى الشعر المنثور الذي يستعين بالموسيقى المنسجمة التي

تعتلج بالنبض والحرارة والانسجام ومن ثمّ الاتسام بالجمال كما في قول ميخائيل نعيمة في قصيدة "السباق"[2]:

لا تقل يا أخي قد خسرت السبــاق أجل
إنّني لأخفّ منك قدما وأوسع خطى إلّا أن
سبيلك وسبيلي أبدا يتلاقيــان في خواء
الزمان حيث لا سبيل ولا شعاب
ســــريعة هي الــــريح ولكنّ
النّسيم الناعس الذي يلــدها ثمّ
يــهجع في أحــضانها لــيس
بــأبطأ مــنها

الاستنتاج: لقد ظهر تأثير المهجريين في الأدب العربي في قوالبه وأغراضه وأشكاله، ففي مجال الشعر لم يقتصروا عند حد الشعر الغنائي بل حاول بعضهم أن يكتب شعرا ملحميا

[1] ميخائيل نعيمة: ديوان همس الجفون، ص17.
[2] المصدر نفسه: ص121.

كما فعل فوزي المعلوف في ملحمته "بساط الريح" إلى جانب الموضوعات الجديدة التي أضافوها إلى الشعر الغنائي، ومن حيث الشكل فقد جدّدوا في الأوزان والقوافي وتحرروا من قيودها وبدا تحرّرهم في صور مختلفة. فجاء شعرهم نتاج الأمل واليأس والحب والبغض والصراع الذي اعتمل في نفوسهم، لقد تركوا نواقيس الكنيسة التي لازالت تقرع في آذانهم حاملين ذكريات الطفولة والوطن الجميل راحلين إلى وطن لم يألفوه.

لذلك فقد أدّت المدرسة المهجرية دورا طلائعيا في الأدب العربي وهي متفتحة على الثقافات العالمية، رافضة التقديسية والصنمية والتقوّقع داخل جدران التراث العربي القديم.